عمنعناع

ڈرامہ

أولادنا

(٣٠)

عم نعناع

تأليف

عبد التواب يوسف

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١

أشرق الصباح..

كان يحمل للناس هدايا جميلة ثمينة..

* مصباح منير

* آلات موسيقى..

* أدوات عمل..

وراح الصباح بالمصباح، يبعث بالضياء إلى الدنيا، يبدد الظلام، ويشيع فيها الدفء.. وتمس الشمس - مصباح الصباح - بأشعتها السحرية الوجود، فتوقظه وتقبله، ويفتح الناس عيونهم وقلوبهم للحياة، وينطلق الجميع من بيوتهم، ويتحرك كل شيء.. والحركة بركة!

وعزف الصباح على آلات الموسيقى: سمع العالم صياح الديكة، وتغريد الطيور، وشقشقة العصافير.. ثم ارتفعت

أصوات البشر، ونداء الباعة.. وعلا الضجيج، وأبواق السيارات، وهدير العربات.. ولكن ذلك كله كان فى نسق هادئ جميل، وكأنه معزوفة موسيقية أو سيمفونية!

وقَدَّمَ الصباحُ أدوات العمل، والبناء، والإنتاج: فأساً وجراراً للفلاح، آلة ومكنة للعامل، مكتباً وقلماً للموظف.. واستقبلت المزارع فلّاحيها، ودارت المصانع، وبدأت الهيئات والمؤسسات ودور الحكومة أعمالها، وفتحت المدارس أبوابها لأبنائها.. الجميع يسعى للعمل، لأنه واجب وشرف وحياة..

ويبدأ يوم جديد..

ويمضى العم «نعناع» إلى مكتبته: خفيفاً، أليفاً، لطيفاً، نشيطاً، باسماً... يلقى بتحية الصباح لكل من يلقاه.. وباسم الله يفتتح أبواب دكانه الصغير، ليجد كل شيء فى مكانه كما تركه بالأمس، فقد تعوَّدَ على أن يرتب أشياءه وينظمها قبل أن يترك محل عمله، ويغادره وقد نسق بضاعته وأدواته.. ومن جديد.. مع الصباحَ الجديد، ينفض عنها الغبار، ويكنس مساحة واسعة أمام متجره، ويرش فوقها الماء، حتى لا يثير الهواء تراب الطريق.. ثم يُخْرِجُ مقعداً، وسلة مهملات،

وإصيصاً به زرع أخضر.. ويضع كل هذا فى نطاق دكانه، ولا يشغل الرصيف، فهو يعرف أنه مِلْك للمارَّةِ.. وبعد ذلك يعيد عرض كتبه بنسق جديد على حامل معلق بالباب، ويفتح مذياعه ليستمع إلى ما تيسر من آى الذكر الحكيم، ونشرة الأخبار، وشيئاً من الموسيقى، وهو يجعل صوت مذياعه خفيضا هادئاً، لا يعبر باب دكانه، ويمر به فى هذه اللحظة بائع الصحف، فيشترى نسختين من صحيفة اليوم، ثم يلقى نظرة سريعة على عناوينها قبل أن يثبتها على ظهر الجانب الثانى من باب دكانه، حيث يجدها زبائنه من أطفال المدرسة القريبة ليطالعوها، وهو يحتاج إلى نسختين ليعرض كل صفحات الجريدة.. ثم يمر به بائع اللبن، فيترك له زجاجة نظيفة، وتجىء عربة تجمع ما فى سلة المهملات، وتحط عصفورة على الباب تهديه تحية الصباح، وتموء قطة صغيرة تسأله نصيبها اليومى من اللبن فيعطيها إيّاه فى طبق صغير، تشربه فى لهفة، وتغادره وفى عينيها نظرة شكر، ويقبل كلب وديع ليجلس قليلا، كأنما يحرس المكان، ثم يجرى ويقفز حين يهل أطفال المدرسة.. زرافات ووحدانا، وهم يحملون حقائبهم، ويتبادلون الحديث باسمين، وينعطفون

• على دكان العم «نعناع» لسبب أو لآخر...

ويرتفع صوت تلميذ، أو تلميذة...

- صباح الخير...

- صباح النور..

ويتبادل الجميع أحاديث قصيرة حول الأخبار العامة، وأنباء الحي والمدرسة، ولابد أن يطلب بعضهم شراء كراسة أو قلم، وقد يتجه آخر إلى حيث عُلِّقت الصحيفة يطالع ما يهمه من أنباء، قبل أن يتوافد زملاؤه ويتزاحمون أمامها، خاصة حين تكون هناك أخبار ساخنة، أو وصف لمباراة هامة في كرة القدم.. وتدور مناقشات بين التلاميذ وهم وقوف، وربما احتدم الخلاف بينهم وارتفعت أصواتهم، حتى يضطر العم نعناع إلى التدخل، راجيا أن يسود الهدوء.. وقد يستمرون في أحاديثهم إلى أن يدق جرس المدرسة، وساعتها يبترون عباراتهم، ويقطعون أحاديثهم، ويجرون مسرعين من أجل أن يلحقوا بطابور الصباح وتحية العَلم...

٢

وذات يوم أقبلت «حنان».. وهي تلميذة بالصف السادس.. ومعها شقيقها «حمادة» - وهو في الصف الرابع - وهما يتحدثان: كان واضحاً أنها تعاقبه على تصرف غريب يتكرر منه: إنه يضرب قطعة حجر بقدمه من باب البيت إلى باب المدرسة، ويضع هذه الكرة الصلبة إلى جوار السور، إلى أن يفرغ من يومه الدراسي، كي يعود بها إلى البيت بنفس الطريقة.. وتهتف به أخته:

- ها هو ذا حذاؤك قد أصبح قذراً.. كما أنه تمزق!

- حرام عليك.. أبي يضطر لأن يشترى لك زوجين من الأحذية كل شهر!

وصمتت قليلا ثم قالت:

- ماذا كنت تريد أن تشترى من العم نعناع؟

- آه... كراسة رسم!

ويؤديان التحية إلى الرجل العجوز الطيب، ويسأله «حمادة» عن كراسة الرسم، وباقى خمسة وعشرين قرشاً، ويأتى الرجل بالكراسة، ويضعها أمامه ومن فوقها النقود، وقبل أن تمتد يده لكى يأخذ الورقة ذات الخمسة والعشرين قرشاً من «حمادة» كانت «حنان» قد طلبت منه شيئاً آخر، فيعيد «حمادة» الورقة إلى جيبه، مع ما أعطاه العم نعناع من نقود معدنية، ويتنبه الرجل لذلك، لكنه لا يسيء الظن بالصغير، ويسكت، وهو يحدث نفسه قائلا:

- ربما نسى... إنَّ بعضَ الظَّنِ إثْمٌ!

وينشغل العم «نعناع» بتلبية طلبات أطفال آخرين.. ويصل ماسح الأحذية، ويشير إلى حذاء «حمادة» فيتركه له كى يقوم بتنظيفه، لكن الفتى ماسح الأحذية يجد الحذاء فى حاجة إلى إصلاح، ويصر على أن يحمله إلى دكان قريب، ويَقبل «حمادة» مضطرًّا، ويجلس إلى المقعد الموضوع أمام باب المكتبة، واضعاً قدميه فوق ورقة نظيفة أعاره إياها العم «نعناع»، وامتدت يد حمادة إلى الكتب الموجودة على الرف، وانتقى منها كتاباً يُقلِّب فيه، وينهمك فى قراءته،

وتنصرف حنان للمدرسة بعد أن تنبه على أخيها بألّا يتأخر.. ويصل «سامى» ويوجه سؤالا إلى العم نعناع:

- هل.. هل عثرت على الـ.. الـ.. الأمانة؟

وتصل الكلمة الأخيرة إلى أُذن «حمادة» الجالس على المقعد، فيتنبه للحديث، ويرد العم «نعناع»:

- أية أمانة؟!... لست أذكر أنى وعدتك بشيء...

٣

وتقطع عليهم الحديث الصغيرة «شريفة»، التى تقتحم المكان، وترفع صوتها وهى تلوح بزجاجة فارغة فى يدها، تسأل العم «نعناع»:

- هل عندك «كحول» لموقدنا الصغير؟!

قال لها: لا.. ليس عندى «كحول»..

وانفجر الأطفال ضاحكين، و«شريفة» تسأل دون انتظار للجواب...

- وليس عندك صابون، ولا سكر، ولا سجائر، ولا...

ويضحك العم «نعناع»، ويحاول أن يفهمها أنه لا يبيع إلّا الأدوات المدرسية والكتب.. وأنه لا يدخن، ولا يبيع السجائر، ولا يرتاح للمدخنين.. وتعود «شريفة»، فتسأله فى طيبة وسذاجة:

- هل عندك «حكايات»؟

- نعم...

وتضع الصغيرة قرشاً فى يد العم «نعناع» وهى تقول له:

- أعطنى حكاية بهذا القرش؟

ويعيد الرجل القرش، ويستدعى إليه كل الأطفال الواقفين أمام المكتبة، وكان قد تجمع عدد كبير منهم فى تلك اللحظة، سألهم العم «نعناع».

- هل تعرفون حكاية «الكحول»؟

ارتفعت أصواتهم وبينهم «شريفة وحمادة»: لا..

مسح العم «نعناع» جبينه، كأنما يجلو ذاكرته، وأسند رأسه إلى كفه وهو يقول: سأحكيها لكم.. إنها حكاية خيالية ظريفة... صلوا على النبى... هتفوا: عليه الصلاة والسلام.. قال:

- زمان.. فى قديم الزمان، عندما خلق الله الدنيا، وأراد أن يزينها بالأشجار والمزروعات والنباتات، ترك سبحانه وتعالى لكل نبات الحق فى أن يختار لنفسه عصارة تغذيه وتُبقى عليه حياته، كما أنها من الممكن أن تصبح عصيراً يستمتع به

الزارعون، والناس أجمعون.. وبدأت المانجو والليمون والبرتقال والطماطم والجـزر والقصب وبقية النبـاتات والمزروعات فى اختيار عصارتها وعصيرها.. هتف «حمادة» من على مقعده البعيد:

- لقد أحسنت المانجو الاختيار!

ابتسم العم «نعناع» وقال:

- الحق أن لكل عصارة وعصير ميزة: المانجو حسن الطَّعم مُغَذٍّ.. الليمون والبرتقال عصارتهما مملوءة بالفيتامينات.. وكان عود القصب مهذباً، فلم يطلب لنفسه شيئاً بذاته، وترك للسماء أن تعطيه ما تشاء، فأهدت إليه عصارة وعصيراً، لستُ فى حاجة إلى أن أقول لكم إنها «تقطر سكراً»!

وابتسم الأطفال للعبارة الأخيرة، ولم يعطهم العم «نعناع» فرصة لكى يعقبوا على كلماته، لأنه واصل حديثه قائلا:

- وانحنى عود القصب شكراً وحمداً لله - سبحانه وتعالى - على جميل عطائه، وكانت الأطراف الخضراء لعود القصب قد لمست الأرض، فدعت الله أن يعطيها هى أيضا عصارة وعصيرا.. فوهب لها عصيراً إذا ترك فى الهواء سرعان

ما يتبخر، وإذا اقتربَتْ منه النار اشتعل على الفور، وإذا ما وُضِعَ على جُرح فإنه يؤلم كثيراً صاحِبَه، وإذا ما فكر أحد فى أن يذوق قطرة منه التهبت معدته وطار عقله!

وكانت هذه العصارة، وذلك العصير، هو «الكحول»..!!

صفقت «شريفة» فرحة بالحكاية، وابتسم التلاميذ، ثم انفجروا ضاحكين وهى تلوح بالزجاجة من جديد...

- الحكاية حلوة.. لكن.. أليس عندك «كحول»؟!

ومضت عنهم دون أن يؤذى أحد منهم مشاعرها.. لأنهم يعرفون أن العم «نعناع» لا يسمح لأحد بأن يؤذى مشاعر الآخرين، ولا يسامح من يفعل ذلك...

٤

انصرف الجميع، ما عدا «حمادة» الجالس إلى مقعده في انتظار ماسح الأحذية، و«سامي» الذي ظل واقفاً في مكانه، لايتحرك.. فسأله العم «نعناع»:

- طلبت مني «الأمانة»؟

وانخفض صوته وهو يضيف وعلى وجهه ابتسامة حلوة..

- أية أمانة؟ هل هي التي عرضها الله سبحانه وتعالى على السمٰواتِ والأرضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا... وعرضها الله جلّ جلاله على الإنسان: فَقَبِلَها؟!

ابتسم «سامي»، وهو يقول هامساً:

- لقد حدثتني عن كتاب تركه لك والدُك.. وقد ورثه عن أبيه، وَجَدِّهِ وقلت لي إنك نسيت عنوانه، وأنه ضاع منك بين الكتب، ولكنك تذكر موضوعه جيداً.. إنه الكتاب الذي يحكي

عن الطريقة التى يمكن بها تحويل التراب إلى «ذهب».. إننى أريد هذا الكتاب، أرجوك!

قال العم «نعناع»: آه.. تذكرت. فعلاً، تاه منى هذا الكتاب وسط أكوام الكتب.. وأقترح عليك أن تستعير منى فى كل أسبوع مجموعة منها من أجل أن...

قاطعه «سامى»: من أجل أن أقلّب فيها، وأعيدها إليك؟

رد العم «نعناع»: لا لا.. بل عليك أن تقرأها حرفاً حرفاً.. إن السر دفين.. إنه موجود بين السطور، ويجب أن تلقطه ببراعة وذكاء.. لا تتصور أنك سوف تجد فصلاً أو باباً بعنوان: تحويل التراب إلى ذهب.. لا.. إن الأمر سر خطير لذلك لا يبوح به المؤلف صراحة.. بل يعطيك إياه جرعة جرعة.. إنها تجارب طويلة وتركيبات كثيرة ومواد عديدة، هل أنت مستعد لبذل جهود ضخمة فى هذا الموضوع؟

أجاب «سامى» بالطبع، أنا مستعد كل الاستعداد... وأريد فى البداية أن نتفق:

كيف سنقتسم ما سأحصل عليه من «الذهب»؟!

قال العم «نعناع»: لست أريد شيئاً من الذهب.. الله الغنى...

سأله «سامي»: إذن فأنت تريد أن «تعرف» منى السر بعد أن أصل إليه؟

أجاب العم «نعناع»: لا لا.. ليس هذا هدفي.. بل في استطاعتك الاحتفاظ بالسر لنفسك.. ليتنى أستطيع أن أقتسم معك «المعرفة»، ولكن ليس ذلك هو المهم الآن.. كل ما أريده ألّا تشغل فكرك بهذا الموضوع وحده..

- لست أملك إلّا أن أفكر فيه ليل نهار.. لو أنك محتاج مثلى لما صنعت غير هذا..

- عندما ينتهى اليوم المدرسى، أرجوك أن تمرَّ بى لتحمل أول مجموعة من الكتب ستبحث فيها عمّا تريد، لكن بشرط ألا يعطلك ذلك عن دروسك...

استأذن سامي لينطلق إلى المدرسة، ولم ينْسَ العم «نعناع» أن يعطيه قرص النعناع ذلك الشيء الذى اشتهر به، حتى أصبح يطلق عليه، ونسى الجميع اسمه الأصلى «العم عبد المنعم»، ولصق به هذا الاسم الجديد، الذى كان يكلفه الكثير، غير أنه

كان يبتهج بإعطاء قرص النعناع لزبائنه، لكى يجلو قلوبهم وعقولهم، ولينتشر عطره، ويفوح.. كما أنه مفيد للمعدة.. ولقد تعوَّد الأولاد عليه كثيراً، وصاروا لا يكتفون بقرص هدية منه، بل كانوا يشترون منه.. ولا يفوتهم أن يعطوه قرصاً، وهم يضحكون قائلين:

- العم «نعناع» يحب النعناع!

وعندما انصرف «سامى»، لم يبق غير «حمادة، فخرج إليه العم «نعناع» يحمل قرص النعناع.. وكان «حمادة» يجلس فى قلق شديد، يتلفت إلى اليمين وإلى اليسار بحثاً عن ماسح الأحذية.. قدم له العم «نعناع» قرص النعناع وهو يقول:

- لقد نسيت شيئًا هامًّا يا «حمادة»..

فزع «حمادة» للعبارة، وسأل فى لهفة: ما هو هذا الشىء الذى نسيته؟

ابتسم العم «نعناع» وقال: نسيت لن.. أن تطلب منى حكاية!

تنفس «حمادة» الصُّعداء، وقال:

- فعلا.. أنا فى حاجة إلى حكاية تسلينى...

٥

اتخذ العم «نعناع» الهيئة التى تعوَّدَ عليها حين يحكى القصص.. وقال:

- كان يا ما كان.. كان هناك طفل يحب الموز، وتمنى لو أنه وُلد فى البلاد التى تعيش عليه، حتى إنها تصنع منه خبزها!، وكانت أم هذا الصغير تعرف عنه هذا، ولا تجد له عقاباً أشد من أن تحرمه من الموز حين يشترونه.. وقد حرمت عليه يوماً أن تمتد يده إلى أى إصبع من أصابع الموز الموضوع فى طبق فى غرفة المائدة... حيث علقت صورة لأمة فوق جدار هذه الغرفة.. وكان الصغير كلما لمح الموز امتدت يده إليه، وما إن يتذكر تحذير والدته حتى يتراجع.. ويعود بعد قليل ليقطع إصبعاً منها، ثم يتنبه فيتركه مكانه.. وفى المرة الثالثة التقطه، وراح يقشره، فى ذات اللحظة التى رفع رأسه ليرى صورة والدته، وإذا بها تعبس فى وجهه.. وذهل.. لأنه يذكر أنها فى الصورة كانت مبتسمة، فأسرع يعيد الموزة إلى مكانها، وتطلع إلى الصورة

فإذا بها تستعيد ابتسامتها.. ومن جديد مدَّ يده للموز، ونظر إلى الصورة وفجأة تبدلت البسمة، وأطل الغضب الشديد من عينيها، وسقطت الموزة من يده، وجرى إلى الغرفة الثانية حيث كانت تجلس أمه، ويلقي بنفسه على صدرها، وهو يجهش بالبكاء، ويرتجف، ويعتذر، مع أنه لم يأخذ شيئاً من الموز..

سأل «حمادة» العم «نعناع»: هل عبست الصورة حقًّا؟!.. لا أظن.. هل يمكن أن يحدث هذا فعلا؟!

ابتسم العم «نعناع» وهو يقول: أعتقد أنه ممكن...

ظهر القلق على وجه «حمادة»، وأراد أن يغير من موضوع الحديث، فهتف...

- لقد تأخر الفتى ماسح الأحذية..

سأله العم «نعناع»: هل تشك فى أمانته؟!

كان السؤال مفاجئاً، فوقف «حمادة» يدق الأرض بقدميه، وهو يقول:

- لست أدرى.. لا أعرف.. المهم: ما الحل الآن؟ لن يسمحوا لى بدخول المدرسة.. لقد دق الجرس للمرة الثانية..

هم في «الطابور» الآن...

- ربما يعاقبك الرجل على خطأ ما، ارتكبته!

همس «حمادة» لنفسه: ربما!.. بل «هو» يعاقبني فعلا.. نعم، ارتكبت خطأ كبيراً...

سأله العم «نعناع»: ماذا تقول؟!

- لا لا.. لا شيء.. أغمغم بكلمات سخط على هذا الفتى ماسح الأحذية...

وفي هذه اللحظة مر بائع لبن، يعرفه العم «نعناع»، ولا يتعامل معه.. كان البائع حزيناً لأن الناس ردوه عن بيوتهم، ورفضوا أن يشتروا منه.. وفجأة تنزلق قدمه ويقع على ظهره، فينسكب اللبن على الأرض، ولم يتمالك العم «نعناع وحمادة» أنفسهما، فضحكا، وتطلع إليهما الرجل ضيق الصدر وهتف:

- ما الذي يُضحِك في هذا؟ انسكب اللبن وضاع!

ابتسم العم «نعناع» وقال: انسكب.. لأنه ماء، وليس لبناً!!

ويضحك «حمادة» بصوت أعلى، في حين يقف البائع ينفض

عن نفسه الغبار، ويمسح إناء اللبن، ونظر فى غيظ إلى «حمادة» وقال:

- أتمنى لك إجازة سعيدة.. لن يسمحوا لك بدخول المدرسة حافى القدمين!

وغضب العم «نعناع» من كلمات البائع، وحمل من الدكان حذاءه الكبير وهو يقول:

- احذر أن تغيب يوماً عن مدرستك «ياحمادة».. لقد أضعت أنا مستقبلى نتيجة لهذا.. كان يمكن أن أكون مهندساً أو معلماً أو طبيباً، ولكن.. وتنهد العم «نعناع»، وطفرت دمعة من عينيه، و«حمادة» يتقدم ليأخذ منه الحذاء الكبير، ووضع فيه قدميه الصغيرتين، وسار يَخُبُّ فيه بشكل مضحك، وحاول أن يجرى فتعثر ووقع، ثم قام وخطا خطوتين.. ثم عاد فى لهفة إلى حيث وقف العم «نعناع» يشجعه على أن يمضى إلى المدرسة، وإذا بحمادة قد أخرج من جيبه الورقة المالية ذات الخمسة والعشرين قرشاً - ووضعها فى يد العم «نعناع» وهو يقول:

- معذرة.. نسيت أن أعطيك نقودك!

وانصرف يجرى، ويتعثر، وابتسامة حلوة، وضحكة صافية من العم «نعناع» تشيعه، وتشجعه على أن يلحق بزملائه.. فى حين كانت مجموعة من الأطفال تجرى، فقد تعودت على أن تصل متأخرة.. وكان يحثهم جميعاً على ألّا تفوتهم دقيقة من الحصة الأولى..

٦

كانت الحياة عند مكتبة العم «نعناع» تمضى على هذه الصورة، لسنوات طويلة.. يتغير الأطفال، يكبرون، ويجىء آخرون، وتتكرر أحداث من نفس اللون.. وصداقة حلوة تربطه بالتلاميذ.. تعامل وتعاون، حركات وحكايات، بيع وشراء... إلخ..

وتعوَّدَ «سامى» أن يمر فى طريق عودته من المدرسة إلى البيت على العم «نعناع»، يحمل مجموعة كبيرة من الكتب، بجانب حقيبته المدرسية.. يأخذ الكتب لقراءتها، وإعادتها.. وما إن يفرغ فى المنزل من واجباته حتى يسرع إلى الكتب، يستغرق فيها، ويغفل عن كل شىء إلا السطور التى تتابعها عيناه فى اهتمام ولهفة، حتى إن أخته ذات يوم كانت تقوم بتنظيف الغرفة وترتيبها فلم ينتبه إليها، وحاولت هى أن تداعبه بالمنفضة الصغيرة التى فى يدها، فراحت تمر بها على المقعد الذى يجلس عليه، فلم يعرها اهتماماً. وامتدت يدها بالمنفضة

برفق إلى كتفه، ثم ذراعيه، وبرغم ذلك فقد استمر يقرأ، فما كان منها إلّا أن دفعت الكتاب من يده فى رقة، فوقع على الأرض، عند ذلك انتفض واقفاً يصيح فيها أن تبتعد عنه، وتضحك الصغيرة النشيطة قائلة:

- ألا تريد منى أن أنظف المكان، والكتاب، وأنت؟!

ولا يرد «سامي» عليها، لكنه يلتقط الكتاب بسرعة، ثم يعاود القراءة، كأنما تسمرت عيناه على الصفحات التى يروح يقلبها طوال اليوم، الأمر الذى تندهش له شقيقته، وكثيراً ما سألته فى اهتمام حقيقى:

- أفى هذا الكتاب «ذهب»؟ أم أنك تكسب «الفضة» من قراءته؟!

وتظهر علامات الدهشة على وجه «سامى» للسؤال الطريف، ويبتسم ابتسامة عريضة بدون أن يرد بكلمة واحدة، وتضطر أخته إلى طرح أسئلة بنفس المعنى، وهى تحاول أن تجمع التراب الذى كنسته من الغرفة، ويلتفت «سامى» إليها قائلا.

- أرجوكِ.. دَعِى هذا التراب.. اتركيه. أنا بحاجة إليه!!

وتفتح الصغيرة عينيها في ذهول، وتسأله: ما حاجتك به؟!

يقول لها: ما لكِ أنتِ؟!.. إنى أريده لأمر هام..

سألته: وماذا لو غضبت أمي؟!

رد عليها: لا تقلقي، سأقول لها إننى طلبتُ منك هذا...

وتنصرف أخته، ويعود «سامى» إلى كتابه يقرأ.. ويقرأ.. ويقرأ.. وما إن يفرغ من كتاب حتى تمتد يده إلى آخر، وهكذا.. وأصبح ينام في كل ليلة والكتاب على صدره..

وذات ليلة، رأى فيما يراه النائم، أن العم «نعناع» قادم من شارع مظلم، وأقبل نحوه في هدوء وسأله:

- هل عثرت على ما كنت تبحث عنه يا «سامى»؟

رد «سامى»: لا أدرى.. لقد قرأت كثيراً لدرجة أنى نسيت ما كنت أبحث عنه، استغرقتنى القراءة وغفلت تماماً عن كل شيء.. ليتك تساعدنى.. حاول أن تتذكر ما قرأته أنت..

قال العم «نعناع»: لا أظن أن ذلك سهل.. لقد مضت سنوات وسنوات..

همس «سامى»: أرجوك.. حاوِلْ..

أمسك العم «نعناع» بواحد من الكتب الصفراء بلون الذهب، وقلَّب صفحاته، وقرأ بضعة أسطر أشعل بعدها موقد كحول صغيراً، وحمل جانباً من التراب الذى وجده فى الغرفة، ووضعه فى إناء صغير فوق النار، وألقى فوقه مواد أخرجها من لفافة موضوعة فى جيبه، فانطلق فى الغرفة دخان كثيف، لم يستطع «سامى» أن يرى شيئاً من خلاله، وبدأ يحس باختناق، ودمعت عيناه، وسأل العم «نعناع»:

- هل تتوقع أن يتم تحويل هذا التراب إلى ذهب؟

- لا أدرى ..إننى أرجو ذلك.. اسمع هذه الحكاية إلى أن ينضج ما على النار.. اتخذ العم «نعناع» هيئته حين يروى قصة، وقال:

- أريد أن أحكى لك حكاية فى البداية.. قالوا إن رجلاً خرج ذات يوم من الغابة وهو يصرخ «رأيت قاتل الإنسان».. سألوه إن كان يقصد: الأسد أو النمر أو..؟! أجاب:

لا، إنه أفظع من كل هذه الحيوانات المفترسة.. إنه

الذهب!.. لقد عثر صديقان على ذهب كثير فى الغابة ورغبا فى الاحتفاظ به، لا يشاركهما فيه أحد. بقيا يحرسانه انتظاراً لِلَّيْلِ لكى يحملاه إلى البيت.. وعندما شعرا بالجوع اقترح أحدهما أن يذهب ليشترى طعاماً ووافقه صديقه الذى بقى يحرس الذهب.. ومضى الأول للسوق، وخلال ذلك راح يفكر فى طريقة يتخلص بها من صديقه ليخلص له الذهب ويستأثر به لنفسه، فوضع فى الطعام سُمًّا.. فى حين كان حارس الذهب يبحث عن وسيلة يأخذ بها الذهب لنفسه أيضاً، فقرر أن يضربَ صاحِبَهُ لحظة وصوله ضربةً لا يقوم منها.. وقد كان.. فعندما رجع الأول أجهز الثانى عليه، ثم جلس يأكل الطعام المسموم ليموت.. ودخل الناس الغابة ليجدوا الصديقين وقد فارقا الحياة وبجانبهما «الذهب» البراق، الذى هو قاتل الإنسان، بل هو أشد فتكاً به من الأسود والنمور والضباع والذئاب..

ثم سأل العم «نعناع»: ما رأيك يا «سامى» فى هذه الحكاية؟

قال «سامى»: إنها حكاية.. مجرد حكاية.. لم يقتلهما الذهب بل قتلهما الطمع..

قال العم «نعناع»: لا أرى فارقاً كبيراً بين الأمرين.. وأنا ممن يرون فى الحكايات أشياء صادقة كل الصدق، وأرى أحداثها تقع حقيقة فى الحياة.. ماذا لو أننا.. أنا وأنت - تصارعنا على الذهب الذى سيخرج من هذا الإناء؟!

ودخلت أم «سامى» لتوقظه لكى يذهب إلى فراشه ليواصل نومه.

٧

ذات يوم، خلال رحلة العودة من المدرسة للبيوت، وجد الأطفال مكتبة العم «نعناع» مغلقة، ولم يكن ذلك يحدث كثيراً.. ومع صباح اليوم التالى كانت هناك مفاجأة.. ما زالت أبواب المكتبة موصدة.. واستمر هذا بضعة أيام، كان الجميع يتساءلون عن سر هذه الغيبة التى لم يتعودوها من الرجل العجوز الطيب، وتنبهوا إلى أنهم لا يعرفون عنه الكثير، مع أنهم يلتقون به يوميًّا، وكان لابد من البحث عن عنوان بيته للسؤال عنه، قد يكون مريضاً، أو فى حاجة إلى مساعدة.. من الواجب زيارته، لكنّ أحداً من المترددين عليه لم يعرف أين يقيم؟. وكان «سامى» أكثر الأطفال قلقاً.، وكذلك «حمادة وحنان»..

تبادل الأطفال الحديث عن العم «نعناع»، وكانت فرحتهم كبيرة حين علموا أن طفلا بالصف الأول يسكن قريباً منه، وأعلن أنه يستطيع أن يدلهم على بيته.. ومضوا معه وهم يتذاكرون حكاياته معهم، وحكاياته لهم.. «حمادة» لا ينسى

الحذاء الكبير الواسع الذى أعطاه إياه، وضحك منه معلموه وزملاؤه، وإذا به فى ذلك اليوم يتفوق على الجميع فى حل مسائل الحساب، بل لم يخطئ فى كلمة واحدة فى الإملاء، وتداعبه شقيقته قائلة:

- الفضل فى ذلك لحذاء العم «نعناع».. إنه حذاء مسحور مثل مركوب أبى القاسم..

وحكى «سامى» عن الكتب التى يعيرها له، كما حدثهم عن شراء العم «نعناع» لبعض الكتب التى يكتشف أصحابها ضياعها منهم، وهو يردها إليهم بدون أن يتقاضى ما دفعه، ولا يعلن عن أسماء بائعيها له، غير أنه يحذرهم من تكرار هذا الخطأ.. كما يروون مواقف كثيرة له، يعاونُ فيها الطُّلّابَ بكل ما يستطيع، بل كثيراً ما استدعته إدارة المدرسة ليساعدها فى أمور عِدّة.. واكتشف الأطفال أن أجيالاً كثيرة من تلاميذ المدرسة تعرف العم «نعناع» وتحبه وتحترمه، وتذكر له خدماته الجليلة، ومواقفه الكريمة.. وكان الأطفال وهم فى طريقهم إليه يتبادلون هذه القصص، ويتناقلونها، وقرب البيت قال «سامى»:

- ألم يكن من الواجب أن نكتفى بأن نبعث إليه برسالة قبل

أن نقوم بهذه الزيارة المفاجئة التى ربما لا يكون مستعدًّا لها ؟!

ردت «حنان»: العم «نعناع» ليس غريباً علينا، و لانحن غرباء عنه..

ويضيف «حمادة: أنا أحس أنه قريب لى.. أشعر أنه عمى بحق، وشقيق لأبى!

شجعت هذه الكلمات «سامى» على أن يواصل السير معهم إلى بيت العم «نعناع» وهو يحاول أن ينتبه للطريق، فقد يحتاج إلى التردد عليه مرة أخرى، كما أن الأولاد سبق لهم أن قالوا لأهلهم إنهم سيتأخرون قليلا فى العودة، لأنهم سوف يزورون العم «نعناع» للسؤال عنه.. وكان بعضهم يتمنى أن يجده فى صحة وعافية، بل إن «حنان» همست:

- أنا فى شوق إلى حكاياته.. ليته يستطيع أن يروى لنا واحدة!

وعند الباب ترددوا قليلا، لكن «سامى» تشجع، وطرقه فى أدب، وفتحه العم «نعناع» بنفسه بعد فترة، لكن مفاجأة كانت تنتظر الأولاد.. إن العم «نعناع» يضع عِصابة فوق عينيه،

ويتحسس طريقه بصعوبة، ولايرى أحداً.. لذلك رفع صوته يسأل في لهفة وقلق:

- مَن الطارق؟! وماذا يريد؟!

ذكر الأطفال أسماءهم، فمد يديه إليهم، يصافحهم وكلمات الترحيب تجرى على لسانه فى حب ولهفة وشوق..

- يا أهلًا يا مرحباً..

قال «سامى» فى قلق: جئنا نسأل عنك وعن صحتك.. لغيبتك عنا..

وهتفت «حنان» منزعجة: ألف سلامة لعينيك يا...

قال الرجل: تعالوا.. تفضلوا.. شكراً لسؤالكم.. لقد اشتقت إليكم.. تعالوا معى.. أكرمونى بزيارة قصيرة.. ادخلوا بيتى.. يا أهلا.. الحمد لله على كل حال.. وأمسك «سامى» بيده، ودخل معه، ومن ورائهما بقية الأصحاب. والعم «نعناع» يكرر الترحيب، ويضيف..

- مرحباً.. ما أكرمكم.. بودى أن أؤدى لكم حق الضيافة.. لكن.. آه، إن ذلك غير ممكن..

قالت «حنان»: شكراً لك، لا حاجة بنا إلى شيء..

ضحك الرجل وقال: عندى هنا «نعناع».. لا تقلقوا..

وانفجر الجميع ضاحكين...

٨

لم تطل الزيارة برغم فرحة العم «نعناع» بها، وحاجة الأولاد إليها.. لقد حكى لهم ظروفه.. كان صوته يقطر حزناً وأسًى.. لقد فاجأه مرض عينيه. تصور فى البداية أن الأمر بسيط، لكن الطبيب حذره من العواقب، وأمره بضرورة عدم التعرض للضوء، ووضعه تحت الرقابة، بضعة أيام قبل أن يقرر أن عينيه فى حاجة ماسة إلى عملية جراحية.. وكانت المشكلة أن المسألة عاجلة، ولا يمكن أن ينتظر العم «نعناع» دوره فى المستشفيات العامة، كما أن العملية فى حاجة إلى نفقات كبيرة لا يستطيع الرجل أن يدفعها.. وواصل العم «نعناع» حديثه:

- واضطررت يا أولادى إلى أن ألجأ إلى ابنى الوحيد.. إن حاله ميسور والحمد لله، ويستطيع معاونتى، لكنه اشترط علىَّ أمراً وجدت من الصعوبة بمكان قبوله، لكننى رضيت به أخيراً ويهمنى أن تعرفوه..

سأله الأولاد: خيراً؟ ما هو الشرط؟

قال: الحق أننى كنت سأبعث إليكم بمن يخبركم بالأمر.. إن ابنى يجد أنه ليس من اللائق أن أظل فى دكانى.. إنه يرى أنه قادر على أن يساعدنى على العملية الجراحية، وعلى مطالبى المحدودة فى الحياة، واشترط علىَّ أن أقبل إغلاق المكتبة ،وألّا أعود إليها بعد علاج عينىَّ..

هتف «سامى» : ماذا؟ تغلق المكتبة؟!

صاحت «حنان»: و.. وماذا نفعل نحن؟!

وقال «حمادة»: هذا غير ممكن.. مستحيل!

سكت العم «نعناع» قليلا، وقال فى حزن وأسف:

– لقد رأيت أنى بين أمرين.. إماّ أن أغلق الدكان، وإما أن أغلق عينىَّ للأبد.. واخترت.. فما أستطيع أن أستغنى عن نور عينىَّ.

قال «سامى»: ونحن لا نستغنى عنك.

وأضاف «حمادة»: ولا عن المكتبة!

- شكراً لعواطفكم الكريمة.. إنني سعيد بها، لكن ليس بيدى، ولا بأيديكم شيء.. ولو أنتم فى مكانى ما فعلتم غير ما أفعله الآن.. ولى عندكم رجاء.

قالوا: نحن تحت أمرك.

مدّ الرجل يده إلى جيبه، وأخرج منه مفتاحاً قدمه إليهم، وهو يقول:

- هذا هو مفتاح المكتبة.. فيها بضاعة قليلة، يمكن التصرف فيها سداداً لبعض إيجار تأخرتُ فى دفعه.. بيعوا ما فى المكتبة بأى سعر، وأعطوا الرجل نقوده مع المفتاح.. ابنى رفض أن يقوم بهذا، يرى فى ذلك مساساً بمركزه الكبير...

كان صوت العم «نعناع» قد اختنق بالبكاء.. طالبه الأولاد ألّا يتمادى محافظة على ما تبقى من نور عينيه، وحاولوا هم من جانبهم أن يضبطوا عواطفهم، ومضوا من عنده بعد أن سلموا عليه، ووعدوه بإنجاز ما طلب، كما أنهم رجوه أن يسمح لهم بتكرار الزيارة، وبالذهاب إليه فى المستشفى.. ووافق الرجل وودعهم وهو متأثر، وشكر لهم جميلهم..

وما إن خرجوا من البيت حتى انفجروا باكين.. وساروا إلى

بيوتهم غير قادرين على أن يتبادلوا كلمة واحدة. لكن الصمت سيطر عليهم مع الحزن، وعندما حانت لحظة فراقهم اتفقوا على أن يتحدثوا في الأمر في اليوم التالي.

وعندما التقوا في الصباح كان واضحا أنهم جميعا لم يناموا نوما عميقا كالمعتاد. بل قلقوا، وتقلَّبوا في فراشهم، وفكروا.. لكن الغريب أنهم - كلهم - جاءوا رافضين لموضوع إغلاق المكتبة. وكان رأيهم أن العم «نعناع» له دور أساسي ورئيسي في حياتهم، وأنه لا يمكن الاستغناء عنه.. إنهم منذ فتحوا عيونهم على المدرسة والرجل يطالعهم في الذهاب إليها، والعودة منها.. وهتف «سامى»:

- إنه هو نفسه مدرسة!

لم يكن للأولاد في المدرسة من حديث غير العم «نعناع» ومرض عينيه، وما كان بينهم طفل واحد يستطيع أن يتصور أنه سيحرم من الرجل العجوز الطيب ومكتبته، وما كان بينهم من هو قادر على أن يعرف أى الأمرين أكثر إيلاماً وأصعب في مواجهته.. مرض الرجل أو حرمانهم منه.. وطال الحديث وما من شيء يخفف من وَقْع الكارثتين عليهم.. البعض يكتفى

بكلمات الحزن والعطف، والبعض الآخر قرر زيارته فى المستشفى، وكان «سامى» أكثرهم تأثراً بالموقف وأقلهم حديثاً عنه، فضَّلَ أن يستمع إلى الكثير بدون أن يتكلم..

٩

وقبل أن تنتهى الدراسة فى ذلك اليوم جمع «سامى» أصدقاء العم «نعناع» - هؤلاء الذين تعوَّدُوا أن يقفوا عند دكانه فى الذهاب للمدرسة والعودة للبيت - وقال لهم:

- يا أصدقائى، أليس مفتاح مكتبة العم «نعناع» معنا؟

قالوا: نعم..

قال: لماذا لا نفتح المكتبة؟!

رد «حمادة»: بالطبع سنفتحها كما طلب منا للتصرف فيما فيها..

هتف «سامى»: لست أعنى بقولى «نفتح المكتبة» لهذا.. بل أقصد نفتحها ونبقيها مفتوحة..

سألت «حنان»: ماذا تقصد؟!

أجاب «سامى»: أن نفتحها وندبرها بأنفسنا..

تناثرت التعليقات: ماذا ؟!... فكرة ؟!... لِمَ لا ؟!... صعبة..

قال «سامى»: أعرف أنها مسأله ليست سهلة، لكننا نعرف كل شىء عن المكتبة.. إننا عاشرناها سنوات.. كثيراً ما عاونّاه عليها.. بل أحياناً كان ينيب عنه بعضنا بعض الوقت إذا ذهب لمهمة أو شراء بضاعة.. ما رأيكم ؟!

تحمس البعض للفكرة، وهَلّلُوا، وصفقوا.. فى حين وقف البعض الآخر صامتاً متردداً.. فى الوقت الذى قال آخرون:

- ليس ذلك فى استطاعتنا.

سأل «سامى»: من منكم موافق على الفكرة والعمل من أجلها ؟

ارتفعت بعض الأصوات: أنا ..أنا.. أنا..

قال «سامى»: الموافقون يقفون إلى اليمين.. والمعترضون إلى اليسار.. ويقف فى الوسط من لم يقرر بعد...

تحرك البعض إلى اليمين فى حماسة، ووقف آخرون فى الوسط، وكان الواقفون إلى اليسار قليلين.. ويبدو أن «سامى»

توقع عدداً أكبر يساند العم «نعناع» لذلك ظهرت علامات عدم الارتياح على ملامح وجهه، لكنه أسرع يقول:

- سنبدأ عملنا مع المتحمسين، ونوزع الأدوار علينا.. كل واحد عليه مسئولية معينة.. وسأقوم فى البداية ومعى «حمادة وحنان» بحصر ما فى الدكان وتسجيله.. وبعد ذلك يقف اثنان من تلاميذ الفترة المسائية فى المكتبة طيلة الصباح، إلى أن يخرج تلاميذ الفترة الصباحية ليتسلموا منهم العمل...

وانطلق «سامى» إلى المكتبة ومعه «حنان وحمادة».. وفتحوا أبوابها.. ونفضوا الغبار الذى تراكم بسبب إغلاق الدكان وقتاً طويلاً، ثم راحوا يسجلون كل شيء ويعدون كل صغيرة وكبيرة وفى أثناء ذلك أسند «سامى» إلى «حمادة» الإمساك بالحساب.. وتصادف فى أثناء العمل أن جاء صديق للعم «نعناع» يأتيه بالأدوات الكتابية من تاجر الجملة، فاستقبلوه فى حفاوة، وطلبوا إليه أن يواصل عمله معهم، لأنهم سيتحملون المسئولية لفترة سيغيبها العم «نعناع»... وفى اليوم التالى وصل مندوب من شركة الحلوى يسأل عن احتياجات الدكان، فطلبوا كميات كبيرة، من النعناع بالذات... وقرروا ألّا يوزعوه

بالمجان، كما كان يفعل، بل جعلوا له ثمناً رمزيًّا.. وكتبوا لوحة صغيرة بخط جميل، قالوا فيها :

خذ قرص نعناع، وساعد العم «نعناع»

وكان من الطبيعى أن يتعثر الأطفال فى بداية العمل، فليست لهم خبرة العم «نعناع»، وكثيراً ما شعروا بالحاجة إليه ليسألوه عن بعض تفاصيل العمل، غير أنهم كانوا مضطرين لأن يعتمدوا على أنفسهم، وعلى مُعلِّمَة لهم نقلوا إليها حكايتهم، ومشروعهم، وقد تبينت روعة ما يفعلون، وتبنت أمرهم، ووقفت بجانبهم تساندهم وتساعدهم، بل كثيراً ما كانت تمر على المكتبة فى وقت فراغها، وكان يسعدها كثيراً أن تجد العمل وقد بدأ ينتظم.. وكان «حمادة» قد أصبح المسئول عن الحسابات والميزانية، وعانى أصدقاؤه من الدقة الشديدة التى يتبعها فى عمله - كأنما يكفر عن محاولته الاحتفاظ بالخمسة والعشرين قرشاً - وكان «حمادة» يصيح فيهم عند أى تهاون أو تقصير يبدر منهم..

- هذا مال رجل يكاد يفقد بصره!

وافتقد الأطفال كثيراً حكايات العم «نعناع»، وكانوا مشوقين إليها كثيرًا، لكنهم - وقد حُرِمُوا وجودَه - تبادلوا مع

بعضهم بعضاً ماارواه لهم من قبل، وانهمكوا فى العمل إلى درجة نسوا فيها أنفسهم، ومتعتهم الخاصة، غير أنهم لم ينسوا دروسهم، وواجباتهم اليومية، وكانوا حريصين عليها حرصا شديدا، إحساسا منهم بالمسئولية، ورغبة فى تنفيذ توصيات العم «نعناع» ونصائحه..

ولم يكن يمر يوم واحد بدون أن يذهب بعض الأولاد إلى المستشفى لزيارة العم «نعناع»، وكانوا حريصين كل الحرص على ألّا يشيروا بكلمة إلى ما يقومون به، وحين يسألهم إذا ما كانوا قد صفوا المكتبة وأعادوا المفتاح إلى صاحبه، كانوا يكتفون بعبارة غامضة صادقة... يقولون:

- كل شىء على ما يرام... والحمد لله...

١٠

لم يكن كل شيء على ما يرام، تماماً... بل بدأت بعض المصاعب والمتاعب والعقبات، إن أسعار السوق غريبة، بعضها فى ارتفاع، وبعضها ينخفض، وتعرض الأولاد لخسائر فى أنواع معينة، فى حين ربحوا فى أصناف أخرى.. وكان يضايقهم أن الأمور أحياناً تبدو قاتمة، غير واضحة، وكانوا فى بعض الأوقات كأن على عيونهم ضمادات، مثل تلك الموضوعة فوق عينى العم «نعناع»، وتتعذر عليهم الرؤية، ويتخبطون.. يشترون كمية كبيرة من كراسات يقال لهم إن سعرها سيزيد، وإذا به يهبط، ويقلّ الإقبال عليها.. وكانت الحلوى مشكلة، لأنهم يأتون بالجيد النظيف منها، لكنّ غلاءه يصرف الكثيرين عنه.. وارتفعت من بين بعض المعارضين للمشروع عبارات مؤلمة..

- لن ينجح سامى وزملاؤه..

- إنه عمل لا يناسبهم أبداً..

- هم يضيعون وقتهم ونقود الرجل المسكين..

وعندما ينقل إليهم أحد هذه الكلمات يتطرق اليأس إلى نفوسهم، ويحسون أن الفشل قريب، ويدركون أن الحماسة وحدها لا تكفى، وأن النية الطيبة ليست كل شيء.. وكثيراً ما مرت بهم لحظات يفكرون خلالها فى أن ينفضوا أيديهم من المشروع، ويصفون ما فى المكتبة ويدفعون الإيجارات المتأخرة، ويعيدون المفتاح لصاحب البيت. غير أنهم سرعان ما يطردون من رءوسهم هذه الأفكار، ويعملون فى جد ونشاط، وكل منهم يأتى مع الصباح بفكرة جديدة تساعد على ازدهار العمل وتقدمه..

وذات صباح حين وصل «سامى» إلى الدكان فى السابعة إلا الربع، فوجىء بلافتة صغيرة مُعلَّقة فوق الباب وقد كتب عليها:

للبيع

.. المخابرة مع تليفون رقم ٢٢١٧٣٥

وقف «سامى» يتطلع فى قلق شديد إلى هذه اللافتة، وضاق صدره، وشعر بحزن عميق، وامتدت يده إلى جيبه بحثاً عن المفتاح، فى نفس اللحظة التى وصل فيها «حمادة»، لتشده

اللوحة إليها، فينسى أن يلقى تحية الصباح على صديقه وزميله، وأسرع ينتزع اللافتة، من مكانها، ويلقى بها فى الأرض، ويركلها بقدمه بعيداً.. بعيداً ،وتبادل النظرات مع «سامى»، ثم انفجرا ضاحكين.. وهمس «حمادة» فى لهجة حاسمة:

- ليس من حق أحد أن يبيع مالا يملكه!

قال «سامى» وهو يفتح الأبواب، ويبدأ فى ترتيب العمل:

- هات هذه اللافتة، نحتفظ بها للذكرى والتاريخ.

- لا.. سوف تظل مُلقاة فى عرض الطريق لكى تُكْنَس مع القمامة!

ابتسم «سامى» وهو يقول: على الأقل انقل لنا رقم التليفون!

ضحك «حمادة»، وهمس: لقد حفظته عن ظهر قلب.. أنت تعرف قوة ذاكرتى مع الأرقام، وبالذات ما يضايقنى منها.

- الرقم ٢٥ مثلا ؟..

ويضحك «حمادة»، فهو لا ينسى أبداً حكاية هذا الرقم،

وكيف حاول يوماً أن يحتفظ بالورقة ذات الخمسة والعشرين قرشاً.

وراح الأطفال يتوافدون على الدكان، وكان كل من يرى منهم اللافتة يتنبه لها ويركلها بقدمه.. ولم يشر إليها أحد، ولا تبادلوا الحديث عنها، فالجميع يدركون أن ابن العم «نعناع» لابد أن يكون وراء تعليقها.. ولديهم من المشكلات والهموم الكثير.. الرجل الراقد في المستشفى والضمادات فوق عينيه.. وأسعار السوق التى لا تستقر على حال.. وبعض المستحقات التى يجب أن يدفعوها لموردى البضائع. وهناك الإيجارات المتأخرة.. وذلك كله إلى جانب دروسهم وواجباتهم ومذاكرتهم.. إن العبء ثقيل، ولكن لن يزيده كثيراً ابن العم «نعناع» ومحاولاته.

١١

كان «سامى» يقف فى مكتبة العم «نعناع»، عقب نهاية يوم دراسي، و «حمادة» جالس منهمك فى عمل الحسابات، ويتنهد فى ضيق ما بين لحظة وأخرى، ويضرب المنضدة بيده بين حين وآخر، والمترددون قليلون، وحركة الشراء بطيئة، وارتفع صوت «سامى» هادئاً عميقاً:

- لماذا لا تستغل مهارتك فى كرة القدم فيما نفعله الآن؟

لم يرفع «حمادة» رأسه عن الورق وتمتم: كرة القدم؟! لقد نسيتها تماماً..

قال «سامى»: ما رأيك لو أقمنا مباراة فى كرة القدم على كأس العم «نعناع»؟

استمر سامى فى حساباته لحظة، ثم بدأ يتنبه للفكرة، وهتف:

- الله.. على أن يكون دخل المباراة لصالح الرجل الطيب؟

- بالضبط، هذا هو الهدف الحقيقى منها!

قفز «حمادة» من مكانه، وكاد يوقع الأوراق وهتف: فكرة رائعة!

وتحمس «حمادة»، ولاعبو المدرسة، وتكون فريق من العاملين فى المكتبة، وتشكل فريق آخر فى المدرسة، ودبت المنافسة بينهما، وبدأ فريق العم «نعناع» الشجاع يتدرب، إذ كانوا قد هجروا الملاعب منذ تحملوا مسئولية العمل، وكانوا يتذكرون عبارة يرددها العم «نعناع» كثيراً..

- إن «العلم والعمل واللعب» كما هى متقاربة فى حروفها، متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقاً، بل إنها لا تنفصل ولا ينفصهم بعضها عن بعض.

ومن جديد بدأت التشنيعات والإشاعات، وتهامس البعض:

- لقد انصرفوا عن العلم إلى العمل.. وهاهم يهربون إلى اللعب والكرة!!

لم يهتم «سامى وحمادة» وبقية الفريق بما يُقال عنهم، فهم يدركون حقيقة ما يفعلون، بل هم الآن يحسنون الاستفادة من

وقتهم واستغلال كل ثانية منه، واستثمارها: فى الدرس والاستذكار، فى الدكان والعمل، وفى الملعب واللعب، واستمرت المباراة الكلامية، إلى أن حان وقت المباراة الحقيقية، واحتشد الملعب بالمتفرجين..

- هل نحن بحاجة إلى أن نقول من فاز فى هذه المباراة؟!

بالطبع فاز فريق العم «نعناع» الشجاع بهدفين نظيفين، سجلهما «حمادة» واحداً بعد الآخر، وتسلم الكأس بين الهتاف الصاخب، وحمل الفريق الكأس فى يده وانطلقوا بها إلى الدكان، حيث تصدرت الكأس المكان.. ولم ينم «حمادة» يومها من الفرحة، ولم يكن سببها الفوز فى المباراة فقط، بل لأن الدخل كان معقولا، ومن الممكن أن يساهم فى تعويض بعض الخسائر التى لحقت بهم لقلة خبرتهم.. والأهم من ذلك أن حكاية الدكان، والعم «نعناع»، وَتَحَمُّل «سامى» وفريقه للمسئولية انتشرت على نطاق واسع، وعلم بها الجميع، وأكبر الكثيرون هذا التصرف.. وانحاز الأولاد الذين وقفوا فى الوسط - ما بين الموافقين على المشروع والمتحمسين له من جانب، وبين المعارضين له والمتشائمين من جانب آخر - إلى سامى

وفريقه، الذى أصبح يحمل منذ مباراة كرة القدم اسم «فريق العم نعناع الشجاع».

وبدأ المعارضون يخففون من لهجة انتقادهم، بل إن بعضهم تعاطف مع العاملين فيه، وأحسوا بخطئهم، وراحوا يترددون من جديد على المكتبة، وأصبحوا زبائن لها، وحاولوا أن يجتذبوا إليها زبائن جدداً من المدارس القريبة المجاورة، وصلت إليهم أخبار المباراة، وحكاية العم «نعناع».. ودب الأمل فى نفوس أعضاء الفريق، وتحسن الموقف، وظهرت تباشير النجاح، برغم أن وَضْعَ لافتة «للبيع» تكررت أكثر من مرة، يجدها الأولاد مع الصباح، ويزيلونها.. وكانوا يضيقون بها فى البداية، ثم تَعَوَّدُوا عليها، وتمنوا لو التقوا بذلك الذى يُعلِّقها، لكنه كان يأتى ليلاً بعد أن يغلقوا الأبواب وينتهوا من العمل.

١٢

علمت إدارة المدرسة بما يقوم به الأولاد، وسعدت بذلك، وراحت تشجعهم عليه، وتساعدهم على أدائه، وتعاونهم على أساس أن ذلك جزء من مسئوليتها.. أن تكون مركز إشعاع لخدمة الحى والبيئة، وألاّ يقتصر دورها على ما يدور داخل جدرانها وفى حجرات الدراسة، بل يمتد إلى ما حولها، ويصل إلى الأبناء فى البيوت.. وكانت ناظرة الفترة الصباحية تمر بالأولاد فى الدكان عقب انتهاء الدراسة، وكثيراً ما وجدت معلمة أو أكثر تتابع العمل فى حماسة.. وكذلك كانت تفعل ناظرة الفترة المسائية.. وعندما اقترح «سامى» إقامة حفل فنى خيرى لصالح العم «نعناع» وافق الجميع، ودب النشاط فى فريق التمثيل، وفريق الموسيقى، وفى سرعة كبيرة تم تدبير مواد الحفل والتدريب عليها، وحددت أسعار التذاكر، وكانت غالية الثمن، لأن الآباء هم الذين سيدفعون، وكان إقبالهم كبيراً، فنفدت التذاكر، الأمر الذى جعل إدارة المدرسة تكرر إقامة

الحفل، فظل لثلاثة أيام متوالية، وكان أسعد الجميع بذلك هو «حمادة»، لأنه سجل أكبر حصيلة مالية فى دفاتره، وامتلأ الصندوق بالنقود، إذ كان «حمادة» شديد الحرص على النفقات، يقلل ويقتر منها على قدر ما يستطيع.. وكانت مفاجأة الحفل ذلك الصندوق الكبير الذى عُلّق فى المدخل إلى المسرح وقد كتب عليه الأولاد بخط واضح جميل، يجتذب أنظار القادمين..

«إنكم - أيها الآباء - قد أخطأتم يوماً فى الحساب مع العم «نعناع» حين كنتم تلاميذ!.. ونحن الأبناء يحدث معنا هذا أحياناً.. نريد من الجميع أن يعوضوا العم «نعناع» عن المغالطات القديمة، لأنه اليوم فى حاجة شديدة إلى هذا المال»...

ضحك الآباء كثيراً أمام هذه الكلمات وتوقفوا عندها، ولم يجد أحد منهم أى حرج فى أن يلقى فى الصندوق ببعض النقود، يشفعها البعض بقوله:

- ولو أننى لم أغالط العم «نعناع» إلا أنه ردَّ إلى المكتبة كتباً كثيرة ضاعت منى..

ويقول آخر: عليّ أن أسدد ثمن أقراص «النعناع» التى أعطانى إيّاها مجاناً..

ويقول ثالث: لا أخفى عليكم.. حدث معى حقًّا أن اشتريت منه ولم أسدد.

وهكذا دفع الكثيرون، لأنهم يذكرون دور الرجل معهم، ثم مع أولادهم، إنه إنسان فريد، طيب، كريم، عطوف، خدم الجميع فى إخلاص وحب.. وراح كل منهم يحكى عنه حكاية، أو يتذكر قصة رواها له، وكان اسمه فى تلك الحفلات على لسان الجميع، يلهجون بالثناء عليه.. على أن أطرف ما حدث أن جميع الأعمال التى قُدِّمَتْ على خشبة المسرح فى هذا اليوم كان هو صاحبها... أعدها الأطفال، ومثلوا أدوارها.. حتى القطعة الموسيقية التى عزفوها كانت تحمل اسم «الدكان: المنارة».. والمسرحية عنوانها «نور العين» وهكذا..

وقد سعد الآباء بهذه الحفلات سعادة كبيرة، وسُرُّوا مما قدمه الأبناء، كما باركوا هدفهم النبيل، وقد حُسِمَ الموقف بالنسبة لتلاميذ المدرسة، لأنهم جميعاً أصبحوا من المتحمسين لفكرة استمرار المكتبة مفتوحة، واختفت كلمات المعارضة،

وشارك الكل فى العمل، وتوالت الاقتراحات:

* يوم بدون حلوى، والثمن يوضع فى صندوق لمساعدة العم «نعناع»..

* مجلات الحائط، ورسائل من الأطفال إلى مجلة «سمير» للمطالبة بعلاج العم «نعناع» على نفقة الدولة..

* مزاد على أشياء قديمة للعم «نعناع» اشتراها أهل الحى للاحتفاظ بها للذكرى..

وعندما أطْلَع «حمادة» صديقه «سامى» على دفتر الحسابات، تبادلا نظرات مملوءة بالثقة، وتبادلا التهنئة، وشدَّ كلٌّ منهم على يد صاحبه فى فرحة غامرة.. إن عندهم كل نفقات العملية الجراحية، والإيجارات المتأخرة، ويستطيعون سداد كل ما على الدكان لتجّار الجملة، بل سوف يتبقى بعد كل ذلك مبلغ من المال، يستطيع به العم «نعناع» أن يستريح بعد العملية الجراحية لفترة طويلة.

١٣

اقترب المساء، وانصرف الأولاد عن الدكان، وبقى «سامى» وحيداً، يعيد ترتيب الأشياء، وتنظيمها قبل العودة إلى البيت للاستذكار، وفجأة وقفت سيارة عند الباب، ونزل منها شاب أنيق، فيه بعض ملامح العم «نعناع»، ولا يدرى «سامى» لماذا أيقن أنه ابنه.. وتقدم الشاب تجاه الدكان، وقال فى لهجة حادة عنيفة مخاطباً «سامى»:

- مَنْ فتح هذا الدكان؟

ردَّ «سامى» فى برود: نعم؟

- كيف تجرؤ على فتح دكان ليس ملكك؟

- هل لى أن أعرف من أنت، وما دخلك بهذا الأمر؟

- هل تستجوبنى؟ سوف أستدعى لك الشرطة.

- تفضل، استدع من تشاء.. لا أحد يخافهم غير اللصوص.

- هذا الدكان معروض للبيع، ولا أدرى كيف حصلت على مفتاحه؟

قال «سامى»: لن يباع هذا الدكان.. وأعطانى العم «تعناع» المفتاح بنفسه.

ضرب الشاب بيده على المنضدة، وصاح: اسمه: العم عبد المنعم.

- أياً كان اسمه، فإن الأمر لا يعنيك، وليس من حقك أن تتدخل فيه.

- لقد اتفق صاحب الدكان مع «ابنه» على بيعه، ليدفع الابن تكاليف...

قاطعه «سامى» لم يعد الرجل بحاجة لمن يدفع شيئاً.. سيسدد من ماله الخاص.

- والإيجارات المتأخرة والديون و...

- كل شيء تم دفعه من أرباح المكتبة، بحمد الله وتوفيقه.

همس الشاب، كأنه يكلم نفسه: غريبة!!

قال «سامي»: أبداً، إن للرجل ديوناً كثيرة وأيادىَ بيضاء على الناس، وأنا واحد منهم.. كثيراً ما أعطى الفقراء كراسات بلا مقابل، ورد الكتب التى تُباع إليه إلى أصحابها بدون أن يسترد ما دفعه..

سأله الشاب: وماذا عنك أنت؟

أجاب «سامي»: فضله علىَّ كبير، لا يمكن أن أرده.. لم أكن ممن يُقبلون على القراءة فابتكر وسيلة رائعة يحببنى فيها.. قال إن عنده كتاباً به طريقة لتحويل التراب إلى ذهب.. وأعطانى العديد من الكتب بحجة البحث عن هذه الطريقة، وبدأت ألتهم صفحات الكتب لأجد الذهب فى سطورها. عرفت الكنز الحقيقى الذى كان يسعى لكى أكتشفه.. وأحببت الكتب أكثر من الذهب.

قال الشاب: أنت تقول كلاماً أكبر من سنك.

رد «سامي»: هذا بفضل العم «نعناع» وكتبه.. قرأت فى واحد منها قصة هندية رائعة.. واعتدل «سامى» فى وقفته، واستند بمرفقه على منضدة الدكان، واتخذ هيئة العم «نعناع» حين يحكى قصصه، وبدأ يحكى:

– كان يا ما كان، عاش رجل وابنه فى قرية صغيرة يعملان معاً، بعد أن رحلت ربة الأسرة، وعندما كبر الابن تزوج، وولدت له زوجته طفلاً جميلاً ظريفاً، أحبه الجد كل الحب، خاصة بعد أن كبر وأصبح عجوزاً، غير قادر على أن يخرج ليزرع الحقل... وكان يبقى فى البيت مع الصغير يلعبان معاً، ويحكى له الجد أجمل الحكايات، فى حين تقوم أم الصغير بأعمال البيت: تنظف وتطبخ وترتب.. وكانت الأسرة سعيدة راضية.. وقد حدث يوماً أن ذهب الشاب إلى السوق ليبيع بقرة، لكنه لم يجد من يدفع فيها ثمناً معقولاً، فعاد إلى البيت غاضباً، ضيق الصدر، إذ كان فى حاجة شديدة إلى النقود، وطلب طعامه، غير أن زوجته كانت مريضة، ولم تقم بطهى الطعام، وازداد الزوج غضباً وقال لها كلمات عنيفة، ولم يرضَ والده عن ذلك، فقال له:

– كان يجب عليك بدلا من أن تشتمها أن تبحث لها عن طبيب.

وإذا بالشاب يثور، ويفقد أعصابه تماماً، ويصرخ:

– لماذا لا تبحث أنت لنفسك عن شىء تعمله غير الجلوس فى البيت والنوم والأكل.

رد العجوز في هدوء: لقد عملت عمرى كله يابنى، كنت جنديًّا، وزارعاً، و... تعبت كثيراً في حياتى، وحان الوقت لكى أستريح.. وإذا كنت لا تريدنى، فإننى مستعد لأن أترك البيت ..
هتف الابن: تفضل.. هيّا..

اتجه الطفل نحو جده الذى تحرك نحو الباب، وبكى الصغير، وكذلك والدته المريضة فى فراشها.. وخطا الجد إلى الخارج، وإذا بالدنيا تمطر مطراً غزيراً، كأن السماء تبكى هى أيضاً.. وراحت الأم والطفل يرجوان الشاب أن يستبقى أباه، فلم يوافق.. لذلك طلب منه الصغير أن يعطيه ما يَتَّقِى به المطر، وقبل الأب، فدخل الصغير وبقى بعض الوقت فصرخ فيه أبوه أن يأتى بسرعة.. وجاء الصغير يحمل نِصْفَ ثوبٍ جديد.. دُهش الأب وسأله:

– لماذا نصف الثوب؟ مَنْ قَطَعه؟

قال الصغير.. أنا.. وأبقيته لأعطيك إيّاه عندما تكبر، وأطلب منك أن تترك البيت.

واهتز الجميع للعبارة، وبكى الشاب، وراح يقبل رأس الجد، ويسترضيه ليبقى..

كان ابن العم «نعناع» يستمع للقصة في صمت ودهشة.. وأذهله أن يختمها «سامى» بقوله:

- كم أود أن أحكى هذه القصة لابن العم «نعناع».. أريد أن أقابله.

- لماذا؟

- لأفهمه أنّ أباه إنسان عظيم.. وأن مكتبته هذه مؤسسة رائعة..

لم يفتح ابن العم «نعناع» فمه بكلمة، وتهيأ للانصراف، وبعد بضع خطوات نظر إلى «سامى» وقال: شكرًا.. أرجو أن تزيد من رعايتك للمكتبة.. سلام عليكم.

١٤

ازدحم المكان أمام الدكان، وامتلأ بالأولاد والبنات.. كانوا مشغولين بدرجة كبيرة، يفرشون الأرض بالرمال ويرفعون الأعلام.. وفى جانب وقفت فرقة الموسيقى التى عزفت فى الحفل، تجرى تجاربها على مقطوعة «المكتبة: المنارة».. كانت الزينات تعلو الدكان، والطريق، وناس يتساءلون: ماذا هنالك؟

تصور البعض أن وزيراً سوف يزور الحى، فتجمع عدد آخر يشاهد ويتفرج... وكانت «حنان» تقف إلى جانب الباب، ترتدى ثوباً أبيض، وتحمل بين يديها باقة من الزهور، واصطف عدد من البنات والأولاد فى ملابس أنيقة، وفى مقدمتهم «حمادة».. وقد تساءل البعض: أين «سامى»؟

وبعد قليل وصلت سيارة، نزل منها «سامى»، ومن ورائه العم «نعناع».. كما هبط معهم ابنه.. كان العم «نعناع» يضع فوق

عينيه نظّارة سوداء، وامتدت يده يرفعها، ويتطلع فى دهشة إلى مكتبته المفتوحة، وقد ارتفعت من فوقها لافتة جديدة واضحة مضاءة، ونظر حوله إلى الأولاد فى دهشة، وهمس:

- هل أنا فى حلم؟ أَمَازِلْتُ بالمستشفى؟.. كنت أسأل الطبيب: هل سأرى حين أرفع الضمادات؟ كان يقول لى: نعم.. وأرد عليه: لكن ما قيمة ذلك إذا كنت لن أرى أطفالى، أصدقائى، أحبائى؟ ما قيمة الحياة ذاتها إذا لم أشاهد ابتساماتهم الحلوة؟.. لكن ..هأنذا أراهم، والدكان مفتوح الأبواب..

وارتفعت أصوات الأطفال يحيون العم «نعناع» ويرحبون به.. وتقدم «حمادة» يشد على يده بقوة وحرارة:

- ألف حمد لله على سلامتك..

- سلمك الله يا «حمادة».. لماذا تركت مدرستك اليوم؟

- لأكون فى شرف استقبالك، ولكى أقدم لك الحسابات.

- الحسابات؟ أى حسابات؟

- ستعرف كل شيء الآن.. وسامحنا لأننا أخفينا عنك الأمر.

وتقدمت «حنان» بباقة الزهور، وامتدت يده تتسلمها منها، وثني ركبتيه وانحنى عليها يقبلها، ويهتف:

- شكراً «يا حنان»... أنا أحب الزهور كما تعرفين.. هذه زهرة بيضاء..وأخرى حمراء.. وثالثة صفراء.. إنى أرى ..مازال فى عينى نور يا أولاد..

همست «حنان»: عملك ينير طريقك دائماً...

وقف الرجل، والدموع فى عينية، يتقبل تحيات البنات والأولاد، وفرقة الموسيقى تعزف قطعة «المكتبة : المنارة»، والأيدى تصافح الرجل، والكل بعدها يحتضنه ورءوس أصحابها لاتكاد تصل إلى صدره وقلبه، ثم علت أصوات الجميع، تهتف: مرحباً مرحباً.. بالعم «نعناع».

وبدأ توزيع أقراص «النعناع» على الجميع، وأخذ قرصاً وضعه فى فمه، وهو فى دهشة ونادى «سامى» إليه، وقال له:

- أمازالت المكتبة مفتوحة؟

رد «سامى»: وستظل.. إنها مؤسسة عامة، لا تملكها أنت، بل هى تملكك.. إنها لن تغلق أبوابها أبداً بإذن الله..

راح العم «نعناع» يخطو تجاه المكتبة، والجميع يفسحون له الطريق، وقد تأثر بالموقف كثيراً، وقد أمسك «سامى» بيده يقوده، والتحيات تأتيه من كل جانب وهو لا يكاد يتبين موقع خطواته، وهمس «سامى»:

- كفاك دموعاً.. لا ترهق عينيك..

رد العم «نعناع»: شكراً يا ربى أن أبقيتنى على قيد الحياة لأعيش هذه اللحظة.. ولف العم «نعناع» على المكتبة.. وعاد إلى مكانه القديم، وجلس فى صمت وسكون، وهدأ الجميع احتراماً لمشاعر الرجل الذى أدرك حقيقة ما حدث.. ووقف ابنه بالخارج، وسأله..

- أبى، هل كانت إجازتك يوم الجمعة؟

- نعم، لماذا تسأل؟

- لأنى سآتى لأقف فى المكتبة مكانك لتظل مفتوحة دائما.

- أشكرك يا بُنَىَّ... لا أكاد أصدق نفسى.. هل سأقف هنا لأبيع مرة أخرى؟ وجاءه صوت «سامى» من بعيد: طبعاً.. هل يمكنك أنت بالذات أن تبقى بلا عمل؟... عاد العم «نعناع» إلى

الصمت قليلا، ثم وقف مهيباً رائعاً، وقال:

- أريد أن أقول لكم كلمة.. والحقيقة أننى غير قادر على أن أجد ما أقوله.. لقد أعدتم إلىَّ نور عينىَّ.. وأعدتم إلىَّ ابنى.. وأعدتم إلىَّ مكتبتى.. حقًا: ماذا يمكن أن أقول لكم؟

وجاءه الرد قويًّا، موحداً: حكاية.. حكاية.. قُلْ لنا حكاية..

واتخذ الرجل صورته القديمة حين كان يحكى..

وبدأ يحكى.. واستمر يحكى..

(ختام)

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٥٧٦٤
الترقيم الدولي	977 - 02 - 3765 - 1	ISBN

١ / ٩٢ / ١٨٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)